صفحات ونفحات

يا حبيبي يا رسول الله

بقلم
الدكتور: عبد المنعم مصطفى حليمي

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

يا رسول الله يا خير الورى ... ما لقلبي عن هيامي فيك لي
ليس يخلو منك يا كل المنى ... خاطري والحال إحدى حجتي
وبرغمي يا حبيبي أن أرى ... لسوى طيبة أزجي قدمي
يا حياة الروح يا ري الظما ... يا حبيب الله يا ساقي الحمى
جئت بالفقر وحبي مذهبي ... والتخلي فيك إحدى حلتي
وبقلبي ما بقلبي من هوى ... وغرام لسبا مني الحشى
ومرادي ليس يخفى والوفا ... منك يحيي من طواه الهجرطي
مسني جدب وقد لظ الظما ... وكفى ما قد جرى من محجري
فتداركني وكن لي شافعا ... ببلوغ السؤل من مرأى ودي
وبتحقيق الرجا من فضله ... ببلوغ القصد منه في بني
ووفا مغفرة شاملة ... لذوي القربى ومن أسدى إلي
وامتنان بالرضى عن سادتي ... ثم من بعدهم عن أبوي

[السيدة عائشة الباعونية الدمشقية]

ما أهدى سيرتك يا حبيبي يا رسول الله ربك ومع كتاب ربك ، فكان لي
وما أزكى سريرتك يا أحب أحباء منهما نعم المعين الذي لا يخذل المستعين
الله ، وما أجلى بصيرتك يا أصفى به ، ونعم المعين الذي لا يظمأ الناهل
أصفياء الله : لقد وقفت بالأمس مع منه ، وها أنذا أقف اليوم معك

مستوحيا أسرار رسالتك ، ومستهديا أنوار نبوتك ، ومستلهما سيرتك العطرة وحياتك النضرة ، فإن لى من هذا كله القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة . فليس من شك فى أنك فيما صدر عنك من أقوال وأفعال وأحوال مثل أعلى ، كما أنك فيما تحليت به من شمائل وفضائل مورد أحلى . وليس من شك أيضا فى أن الله عز وجل قد قومك أحسن تقويم وخصك بأكرم تكريم ، وفطرك على خلق عظيم . وليس من شك بعد هذا كله فى أنه ما اقتدى بك مقتد ولا اهتدى بهديك مهتد ، إلا كان بمنجاة من غوائل المحن والخطوب ، وبمأمن من عوادى الفتن والكروب .

لقد وقفت مع سيرتك يا رسول الله ، وتدبرت ألفاظها ومعانيها ، وتبينت مبادئها ومراميها ، فإذا هى سيرة محب أحب الله فاهتدى بهداه ، وسيرة محبوب أحبه الله فاجتباه وأصطفاه ، وإذا هو عز وجل يتخذ منك رسولا وصفيا ، ويجعل منك خليلا ونجيا ، ذلك بأنك — يا أحب أحباء الله إلى الله — قد حييت حياة روحية خالصة لوجه الله ، فلم تخش أحدا من خلق الله ، ولم تفرط فى حق من حقوق الله ، وإنما أسلمت وجهك لله ، وتوكلت فى أمرك على الله ، وأحققت الحق . وأزهقت الباطل فى سبيل الله ، فكانت حياتك بهذا كله حياة جهاد وصبر أقيمت على دعائم من الخلق القوى ، والايمان النقى : جاهدت النفس والشيطان ، وجاهدت الإثم والعدوان ، وجاهدت البغى والطغيان ، وجاهدت الظلم والظالمين ، وجاهدت الشرك والمشركين وصبرت على أذى المستهزئين الذين ضلوا فانحرفوا ، وآذوا فأسرفوا ، وأخذوا يدبرون لك ويأتمرون بك ويحاولون النيل منك وأنت كما أنت ، صامد صابر محتسب ، لا تيأس ولا تبتئس ولا تكتئب ، ولا تشكو إلا إلى الله . ولا تستعين إلا بالله . ولا تعتمد فى مجاهدتك أعداء الحق إلا على الله . وما فتىء القوم يتمادون فى الشر ويغرقون فى البغى ويمعنون فى الإستهزاء ويسرفون فى الإيذاء وما فتئت تقيم على أمر الله وتؤدى إلى قومك النصح والإرشاد من لدن الله وتأخذ نفسك باحتمال ما تلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء حتى أنزل الله سبحانه عليك قوله :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين

الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون » .

وها هى ذى سيرتك يارسول الله قد استلهمت صفحاتها واستروحت نفحاتها . فاذا أنا أجد فيها عظتى وعبرتى وأتخذ منها قدوتى وأسوتى . وألتمس عندها عضدى وقوتى، وعزائى وسلوتى ، وذلك من ثنايا ما اشتملت عليه من الأسرار الإلهية . وما فاضت به من الأنوار القدسية وكل أولئك إنما هو آيات مشرقات ودلالات صادقات على أن الله ما كان لينصر عليك المشركين الضالين . ولا الظالمين الآثمين . ولا الباغين الطاغين . وأنت ما أنت من دعوة إلى الحق المبين ، ومن تمسك بالكتاب الذى أنزله رب العالمين . هدى ورحمة للمتقين . نعم لقد أوذيت وحوربت واستهزىء بك وسخر منك وأريد بك الشر والقتل أكثر من مرة وأنت فى كل مرة تحرسك عناية الله ياحبيب الله وصفيه وتحفظك رعاية الله يارسول الله ونحيه ذلك بأن ربك هو الحق . ودعوتك هى دعوة إلى الحق . وأنت فيما تدعو إليه وتتمسك به إنما تدعو إلى الحق وتتمسك بالحق وخصومك طغاة بغاة وبالباطل سعاة ودعاة ، ولا يمكن أن يظهر باطل خصومك على حقك وحق ربك ولا أن تغلب ظلمة شركهم وشكهم على نور توحيدك ويقينك . ومن هنا كان ما كان من تأييد الله لك وإنعامه عليك ، وأى شىء أدل على هذا الانعام وذلك التأييد من قصص المستهزئين معك . ومن خذلان ربك لهم وإظهاره لك عليهم .

فهذا هو أبو جهل وقد كان أشد المستهزئين وأمعن المعتدين . لقد قال يوماً : يامعشر قريش إن محمدا قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم . إنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله فاذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فاسلمونى أو امنعونى وليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لك يا رسول الله ينتظرك . وغدوت عليك السلام كما كنت تغدو لصلاتك وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل . فلما سجدت عليك السلام احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوك . حتى إذا دنا منك رجع منهزما ممتقعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام إليه رجال من قريش فقالوا : ما لك

يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم ، فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط ، هم بى أن يأكلنى . ولما ذكر ذلك لك يا حبيب الله ويا مؤيدا بروح من عند الله . قلت : ذاك جبريل ولو دنا لأخذه .

وهؤلاء هم الوليد بن المغيرة وأمية ابن خلف وأبو جهل بن هشام ، قد مررت بهم يا رسول الله ذات يوم ، فإذا هم يغمزون ويهمزون ، ويسخرون ويستهزئون ، ولكن ربك الذى نصرك وخذلهم ، وأعزك وأذلهم ، ووعدك وتوعدهم ، أنزل عليك قوله : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ، قل سيروا فى الأرض ثم أنظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وهذا هو أمية بن خلف ، ما كان ليراك إلا همزك ولمزك ، ولكن مولاك الذى حفظك ورعاك ، هدده وتوعده بالويل وسوء العقبى ، بقدر ما أمنك ووعدك وكتب لك الحسنى وذلك فى قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن فى الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم موصدة فى عمد ممددة » .

كل أولئك وكثير غيره صفحات مشرقة ونفحات متألقة ، من سيرتك العطرة ، ما ألممت بهـا ولا وقفت عندها ولا أعملت عقلى فيها ولا ملأت قلبى بمعانيها ولا استنرت بها كلما غشيت الغواشى ولا فزعت إليها كلما عدت العوادى إلا أصبت منها غذاء لقلبى وعزاء لنفسى وإلا ألفيت عندها الضياء الذى يبدد الظلمات ، والدواء الذى يفرج الكربات ، والقوة التى يستمد منها المظلوم عونه على محو الظلم وتشتيت شمل الظالمين ، والعبرة التى يستهديها المهضوم فيما هو بسبيله من صد الهاضمين . وكيف لا يكون ذلك كذلك وكل أولئك إنما يستمد من مشكاتك ويلتمس من نفحاتك وأنت يا حبيبى يا رسول الله . ويا أحب أحباء الله الى الله . كما وصفك وبين فضلك البوصيرى حيث قال : —

بمدح المصطفى تحيـا القلوب ... وتغتفر الخطـايا والذنوب

وأرجو أن أعيش به سعيداً ... وألقـاه وليس على حوب

نبي كامل الأوصاف تمت محاسنه فقيل له الحبيب
يفرج ذكره الكربات عنا إذا نزلت بساحتنا الكروب
مدائحه تزيد القلب شوقا إليه كأنها حلى وطيب
وأذكره وليل الخطب داج على فتنجلى عنى الخطوب
وصفت شمائلا منه حسانا فما أدرى أمدح أم نسيب

وكيف لا يكون ذلك كذلك أيضا وأنت يا حبيبى يا رسول الله ويا أصفى أصفياء الله . كما صورتك السيدة عائشة الباعونية الدمشقية حيث قالت :

أحمد الهادى إلى دين الهدى ببيان محكم من عند حى
ونبي من قديم كم رووا فى علاه من حديث يا بنى
خير مبعوث تحت أنواره بصباح الرشد عنا ليل غى
بدر أفق القرب شمس الاصطفا زينة الدارين عين العالمى
صاحب الآى التى عن بعضها قصر العقل وأزوى أى زى
له الجاه الذى لا ينبغى لسواه يوم تطوى الأرض طى
أسعفت ألطاف طه المصطفى بمرادى يا فؤادى قم تهى
مدنى منه بفيض شامل فالمنى من راحتى فى راحتى

وإذا كانت تلك هى صفحاتك التى تدبرتها ، ونفحاتك التى تدبرت بها . وكنت أرجو أن أستظل دائما بظلك وأن أنهل أبدا من فضلك فماذا عساى أن أصدر فيه عن ولائى وذات قلبى وأن أعبر به عن رجائى ووفائى وحبى . إلا أن أردد قول شاعرك حسان وأن أرجو رجاءه الذى تضمنه هذان البيتان :

وليس هوائى نازعا عن ثنائه لعلى به فى جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

أما بعد :

فسلام عليك تترى من الله وتبقى به لك البأواء.
وسلام عليك منك فما غيرك منه لك السلام كفاء.
وثناء قدمت بين يدى نجواى إذ لم يكن لدى ثراء.
ما أقام الصلاة من عبد الله وقامت بربها الأشياء.

(محمد مصطفى حلمى)